

ثانياً: فكرة الطبقات: وهذا العمل كان يتطلب من ابن سلام التعرض للنصوص الأدبية بالتحليل حتى يظهر جمالها الفني ويعمل قصورها، إلا أنه انصرف إلى الشعراء أنفسهم ذاكراً لهم ما يراه جيداً دون أن يذكر أسباب تلك الجودة في الغالب، و لو نظرنا إلى مصنفه سنجد أنه يشتمل على ١١٤ شاعراً جاء توزيعهم في الطبقات التالية: ١ - طبقات الشعراء الجاهليين: وهي عشرة، في كل طبقة أربعة شعراء. ٢ - طبقة أصحاب المراثي: وتضم ثلاثة شعراء وشاعرة - الخنساء -، وهي المرأة الوحيدة التي أوردها ابن سلام في طبقاته. قسّموا على النحو التالي: ب - شعراء مكة تسعة. ج - شعراء الطائف خمسة. د - شعراء البحرين ثلاثة. هـ - طبقة شعراء اليهود وتشمل ثمانية شعراء. لأنه لا بد أن يبدأ بذكر أحدهم، يقول: "وليس تبدئنا أحدهم في الكتاب نحكم له، ومع ذلك فإننا نجد ابن سلام - في كثير من الأحيان - يوازن بين شعراء الطبقة الواحدة، أو بين شاعر وآخر داخل الطبقة، فيورد رأى العلماء فيهم ويختار من شعرهم ما يؤكد هذا الرأى، ثم يفسر بعض الكلمات الغريبة التي قد ترد في الشعر - وهذا قليل - أو يورد آراء علماء اللغة فيها، وفي حالات قليلة يبين رأيه، وشواهد ذلك في طبقاته كثيرة؛ من ذلك - مثلاً - ما نراه في المفاضلة بين شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين؛ من ذلك قوله: "أخبرني يونس بن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حُجر، وشبه الخيل بالعقبان والعصيّ، وقيد الأوبد، أما ابن سلام فيرى أن امرأ القيس: "كان أحسن أهل طبقاته تشبيهاً، وأحسن الإسلاميين تشبيهاً ذو الرُمة". وقد اعتمد ابن سلام في مفاضلته بين الشعراء وتصنيفهم في طبقات تبين مكانتهم الأدبية ومرتبتهم الشعرية على ثلاثة مقاييس عامة؛ هي: ١ - كثرة شعر الشاعر. من ذلك - مثلاً - ما نراه في تبرير تأخر منزلة طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدى بن زيد، إلى الطبقة الرابعة، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة". وكذلك قوله في معرض حديثه عن الطبقة السابعة: "أربعة رهط مُحْكَمُونَ مُقْلُونَ، وفي أشعارهم قلة، فذاك الذي أخرهم". وكذلك مقياس تعدد الأغراض الذي يتضح أثره بصورة جلية في مواضع عديدة من طبقاته، من ذلك - مثلاً - ما نراه في تبرير وضع كُثَيِّر عزة في الطبقة الثانية من فحول الإسلام، وجميل بن مَعْمَر في الطبقة السادسة؛ وكان جميل صادق الصبابة، وكان كُثَيِّر يتقوّل، ولم يكن عاشقاً، وأن ابن سلام نفسه كان قد أشار - في مقدمته - إلى قضية الإنتحال والوضع في الشعر، وأن الرواة لعبوا دوراً خطيراً في الإقلال من شعر شاعر، والإكثار من شعر غيره. لذلك أرى أن أهمية هذين المقياسين تنبع من ارتباطهما بمقياس الجودة، فالشاعر المكثّر المجيد مُقَدَّم - عند ابن سلام - على الشاعر المُقَلّ المُجيد، والمُكثّر المُجيد المُتعدّد الأغراض مُقَدَّم على المكثّر المجيد الذي لم يَقُلْ إلا في غرض أو اثنين، أما كثرة الشعر وتنوع أغراضه فإنهما لا يجعلان الموصوف بهما مُقَدَّمًا إذا كان شعره رديئاً. وما هي أسس تلك الجودة حين يقول - مثلاً -: "كان قُرَاد بن حَنْش من شعراء غطفان، فَيَذُمُّ وَيَحْمَدُ، وله في ذلك أشعارٌ. وله واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشعر، لو كان شافعها بمثلها قَدَمناه على مرتبته". أو يقرن شاعراً بآخر؛ وما قال فيه العلماء، وكذلك حين يقول: "ثم إننا اقتصرنا - بعد الفحص والنظر والرواية عَمَّن مضى من أهل العلم - إلى رهط أربعة اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة، وسنسوق اختلافهم واتفاقهم، ونسمي الأربعة، ونذكر الحجة لكل واحد منهم". فهو غالباً ما يستقصى آراء العلماء في منزلة شعراء طبقاته، وأحياناً يناقش تلك الآراء ويبين رأيه فيها. منها قوله في النابغة الجعدي: "كان الأصمعي يمدحه بهذا وينسبه إلى قلة التكلف"، وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً ذو الرُمة". إنما يعنى موافقته على تلك الآراء، أو فلنقل عدم تحفظه عليها، وإلا لما وجدناه يخالف ما لا يروقه من تلك الآراء في مثل قوله: "وكان كُثَيِّر شاعر أهل الحجاز، ولا أحسب ذلك حقاً"، ومثل هذه الآراء على قلتها تدل على أعمال ابن سلام فكره وتقليبه الرأى قبل أن يعتد به ويعتمده. - إن السبق والإبداع مقياس هام من مقاييس الحكم بالجودة عند ابن سلام، واتباعه فيها الشعراء"، كما نراه يبرر وضع الراعي النميري في طبقة فحول الإسلاميين الأولى بقوله: "وكان يُقال له في شعره: كأنه يَعْتَسِفُ الفلاة بغير دليل! أي أنه لا يحتذى شعر شاعر ولا يعارضه". - وللمقاييس الفنية العامة أثر واضح في حكم ابن سلام على الشعر بالجودة، وهي كثيرة متنوعة تتصل بلفظ الشعر؛ أو بلفظه؛ ، وهي في معظمها عامة تحتاج إلى توضيح وتحديد. نجده يقول: "قال لي معاوية بن أبي عمرو بن العلاء: أي البيتين عندك أجود؟ قول جرير: "أم قول الأخطل: شمسُ العدَاوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم وأعظمُ النَّاسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا أو متى يكون الشعر حلواً؟!، ومثله وصف" رقيق حواشي الكلام"، وكذلك وصف القطامي بأنه "رقيق الحواشي، حيث لا نستطيع أن نحدد معايير رقة الحواشي ولا ماهيتها. ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود بعض المعايير المحددة الدلالة؛ وشرف المعنى وفخامته. من ذلك - مثلاً - قوله: "كان - امرؤ القيس - أحسن أهل طبقاته تشبيهاً، وأحسن الإسلاميين تشبيهاً ذو الرُمة". منها: ثم يفاضل بين تلك القرى وأثرها في غزارة الانتاج فيقول: "وهي خمس: المدينة، والطائف، واليمامة، والبحرين. وفي موضع آخر نجده يتحدث عن أثر المكان في تشكيل سمات الشعر - خاصة اللغوية -، - العقيدة: استند ابن سلام إلى العقيدة الدينية حين أفرد لشعراء اليهود طبقة مستقلة اشتملت على ثمانية منهم. كذلك لم يتعرض إلى أثر العقيدة

الدينية فى شعرهم ومعانيهم . - الأخلاق: كذلك اتضح أثر المعيار الأخلاقى فى حديث ابن سلام عن سمات شعر بعض فحول الجاهلية كامرئ القيس والأعشى، ومنهم من كان ينعى على نفسه ويتعهر. منهم امرؤ القيس . ، ومنهم الأعشى " . وكذلك فى موازنته بين الفرزدق وجريز، ويميز جريزاً عنهم فيقول: "وكان جريز مع إفراطه فى الهجاء يعف عن ذكر النساء، - التشابه: وضع ابن سلام هذا المقياس فى حسابانه وهو يشرع فى تصنيف طبقاته، فقال فى مقدمة كتابه: "فألّفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، مُتَكَافِئِينَ مُعْتَدِلِينَ " ، وقد لاحظنا أثر هذا المعيار فى معظم طبقاته، إضافة إلى ما تجلّى فى موازناته بين بعض شعراء الغرض الواحد من طبقات مختلفة، من ذلك ما يلاحظ فى موازنته بين جميل بن مَعْمَر وكُثَيِّر عزة فى فن النسيب، وبين جريز والفرزدق فى فن النقائض . وغيرهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل رأيناه يفرد طبقة لمن برزوا فى غرض واحد من أغراض الشعر، وهى طبقة أصحاب المراثى . مع أن الاتفاق فى الغرض كان يتطلب من ابن سلام الموازنة بين معانيهم وخصائص شعرهم، ثم المفاضلة بينهم. ومن قبيل التشابه أيضاً؛ ما نراه فى تخصيص الطبقة التاسعة من طبقات فحول الإسلام للحديث عن أربعة من الرُّجَاز. حيث نراه يستذكر زهير بن أبى سلمى فى أثناء حديثه عن ابنه كعب، واستناداً إلى مقياس التشابه نجده يقرن ذكر جريز وذريته بذكره لزهير، فيقول: "ولم يزل فى ولد زهير شعر. فقال: لك الصَّرَافُ إنه ردى! فهل ينفك استحسانك إيّاه؟" . وكذلك إشارته إلى الأخطاء التى تصدر عن غير المختصين الذين يتصدون للشعر وروايته فى مثل قوله: "وجدنا رواة العلم يغلطون فى الشعر، " وذكر الشروط الواجب توافرها فى الناقد فشدد على أهمية الذوق والاستعداد الفطرى، لا تُعرَف جودُهما بلون ولا مس ولا طراز ولا وسم ولا صفة، تلك الخاصية الجوهرية التى لا تنسنى للناقد بالتلقين أو التعلم، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، حسنة العين والأنف، جيّدة النُّهُود، ظريفة اللسان، واردة الشَّعر، فتكون فى هذه الصفة بمئة دينار وبمئتين دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء: إنه لندى الحلق، طلّ الصوت،